

" آراء الإمام محمد بن محبوب الكلامية "

د. مسلم بن سالم بن علي الوهبي

كلية التربية بالرساق،

وزارة التعليم العالي،

سلطنة عمان.

عرف القرن الثالث الهجري بقرن تدوين العلوم وازدهارها، وتعدّ عمان من بين بلدان العالم الإسلامي التي أسهمت إسهاما بارزا في تدوين العلوم، ويعتبر الإمام محمد بن محبوب أبرز علماء عمان في ذلك التاريخ، لقد وضع بصماته على قضايا وجوانب كثيرة. ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نخصّ آراء هذا الشيخ بالبحث.

وقد اقتضت منهجيتنا أن يتّم تناول هذا الموضوع وفق ما يلي :

- في تحديد المصطلحات،

- المباحث الكلامية عند محمد بن محبوب.

1 - في تحديد المصطلحات :

بعدّ تحديد المصطلحات الشرط الأساسي للوضوح،

فكل بحث في حاجة إلى أدوات مفهومية وتحديدات منهجية ومصادر معرفية من أجل إنارة الواقع وإبرازه على درجة أقرب من الموضوعية. وتتمثل المصطلحات التي نرنو إلى تحديدها في :

أ - الرأى :

جمع رأى وهو الاعتقاد، والعقل، والتدبير، والنظر والتأمل⁽¹⁾.

والرأى عند الأصوليين : استنباط الأحكام الشرعية في ضوء قواعد مقررة⁽²⁾.

ب- العلم د. محمد بن محبوب حسب النشأة والتكوين والإنتاج :

هو الشيخ العلامة الفهامة، أبو عبدالله محمد بن محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة القرشي المخزومي، من أشهر العلماء في زمانه، وشيخ المسلمين، ومرجعهم في الفتوى والرأى، وكان مضرب المثل في العلم والزهد والتقوى⁽³⁾.

والده العلامة محبوب بن الرحيل، والشيخ موسى بن علي، ولا يبعد أن يكون أبو صفرة عبد الملك بن صفرة من شيوخه.

له كثير من التلاميذ منهم ابناه العلامتان بشير بن محمد بن محبوب، وعبدالله بن محمد بن محبوب والد الإمام سعيد بن عبدالله، والعلامة عزان بن الصقر، والعلامة أبو المؤثر الصلت بن خميس الخروصي، والعلامة الفضل بن

(1) ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، استانبول، تركيا، ج 1، ص32.

(2) المرجع السابق .

(3) البطاشي : سيف بن حمود ، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية، ج 1 ، ص 250.

الحواري السامي الإزكوي، وأبو جابر محمد بن جعفر الإزكوي مؤلف الجامع⁽⁴⁾.

لقد نشأ الشيخ محمد بن محبوب في أحضان والده الإمام محبوب بن الرحيل في بداية حياته، حتى رضع لباب التقوى وحب العلم، وبعد وفاة والده قصد الشيخ موسى بن علي، وأخذ ينهل من علمه حتى بلغ درجة الاجتهاد، عاش العلامة محمد بن محبوب حياته معلماً ومفتياً وحاتاً على اتباع الإسلام، وقد ورث عن أبيه المدرسة الرحيلية بصحار فكان هو المدرّس بها، كذلك تهافت عليه طلاب العلم، من المشرق والمغرب يستفتونه ويتعلّمون منه، وجاءته الرسائل من بلاد المغرب، وكان رأس العقادين للإمام الصلت بن مالك عام 237 هـ/851م، كان يزور البصرة، ثم حجّ وأقام في مكة ثم جاء إلى عمان⁽⁵⁾ وكان قاضياً في صحار من عام 249 هـ/863م إلى أن توفي، وخلال فترة إقامته بمكة التقى بالعلامة عمرو بن فتح المساكني المغربي الذي أخذ يسأل ابن محبوب عن مسائل كثيرة⁽⁶⁾، لأنّه كان غزير الفقه لدرجة أنه لم يؤلف كتاباً بعد وفاته إلا وتجد كنيته (قال أبو عبدالله) أو اسمه (قال محمد بن محبوب) بين سطورهِ أو حكاية عن سيرته وأموره⁽⁷⁾.

ومن أخبار محمد بن محبوب كذلك أنّه لما دخل أهل الهند الإسلام، قال لهم محمد بن محبوب : اذهبوا فصلوا وقولوا سبحان الله في قيامكم وركوعكم وسجودكم حتى تتعلّموا⁽⁸⁾ وكان آية في الذكاء، قال : أعقل وقد انطلق الثور

(4) المرجع السابق، ص252.

(5) عبد الحليم رجب محمد: الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، 1995، ص ص 162-163.

(6) الدرجيني أحمد بن سعيد (ت 670 هـ) طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاوي، ج 2، ص324.

(7) الدرجيني أحمد بن سعيد (ت 670 هـ) طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاوي، ج 2، ص324.

(8) البطاشي : أتحاف الأعيان، ج 1، ص253.

وأنا في المهد فجرت الصينة (الحبل) على المهد فكفّته (كبّته على وجهه) فنظرت ذلك اليوم فإذا أنا ابن ستّة أشهر (9) .

توفي رحمه الله يوم الجمعة 3 من شهر محرم سنة 260هـ/873م في صحار (10) .

وللشيخ محمد بن محبوب أعمال كثيرة أبرزها :

- تخريج جيل من العلماء الأفذاذ في تلك الفترة.

- تولّى القضاء في صحار من عام 249 هـ/863م إلى أن توفي، وله آراء في القضاء من أجود ما يكون.

- تأليف كتاب (مختصر ابن محبوب) كان أبو محمد يقرأ منه الجزء

السادس على أبيه أبي صالح بكر بن قاسم اليراسني - رحمه الله فكان أبو صالح يقول : (كلام محقق فقيه أصولي)، والمختصر يقع في 70 جزءاً⁽¹¹⁾، وقد ظل أمر هذه الكتاب مذكوراً وظلّت دراسته قائمة حتى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد حيث ذكره البرادي الذي عاش في ذلك القرن وقال إنه وقف في بلاد المغرب على كتب علم عمانيّة وجدها هناك منها هذا الكتاب⁽¹²⁾، ولكن هذا الكتاب القيّم فقد كما فقد غيره من تراث.

- تأليف "سيرة إلى أهل المغرب"، مطبوعة ضمن (السّير والجوابات) ج 2 من ص 223 إلى 268.

- تأليف "سيرة إلى أبي زياد خلف بن عزرة"⁽¹³⁾ مخطوطة ضمن مخطوطة (سير علماء الإباضية) لدى الباحث صورة منها، من 221 إلى ص 225 وهي عبارة عن أسئلة حول الولاية والبراءة.

(9) السالمي : عبدالله بن حميد السالمي (ت 1332هـ) : تحفة الأعيان، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، ج 1، ص 357.

(10) السالمي : تحفة الأعيان، ج 1، ص 166.

(11) الدرجيني : طبقات المشايخ، ج 2، ص 171.

(12) رجب عبد الحليم : الإباضية ص 171.

(13) لم أجد له ترجمة ويبدو أنه من عامة الناس.

- تأليف "سيرة إلى إمام حضرموت أحمد بن سليمان" (14) في الحثّ على الجهاد والسياسة الشرعية، وهي مخطوطة ضمن (سير علماء) لدى الباحث صورة منها من ص 225 إلى ص 236.

ويرى البعض أن عهد الإمام الصلت بن مالك الخروصي إلى جيشه الذي أرسله لفتح سقطرى، هو لمحمد بن محبوب وليس للإمام الصلت، فقد قال الإمام السالمي بعد ذكره لنص العهد : ووجد بخط الشيخ أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن سليمان مكتوباً في بعض الكتب أنه على أبي عبدالله محمد بن محبوب - رحمه الله - (15)، وما دامت هذه الوثيقة لم تصل إلى حدّ اليقين أنها من تأليفه لذا لم نستفد منها في بحثنا هذا.

ج - علم الكلام :

لمّا كانت العقيدة هي الأصل وما عداها هو الفرع، فإنّ العلماء قد صنّفوا وبحثوا وقاموا بدراسات عظيمة الشأن في إثبات العقائد، إمّا لبيان الأدلة عليها، أو لردّ الشبهات التي تلقى من حولها، وقد سمّي العلم الذي يبحث في العقائد بأسماء مختلفة منها (16) :

- الفقه الأكبر : سمّاه بهذا الاسم الإمام أبو حنيفة في كتابه (الفقه الأكبر) (17)، حيث ذكر أنّ (الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأنّ الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفصل الأصل على الفرع معلوم) .

(14) ترجمته : من أئمة حضرموت، عاصر الإمام الصلت بن مالك، وقعت في زمانه فتنة وانقسامات بين المسلمين بحضرموت، فأرسل إلى أهل عمان يستثيرهم فأجابه الإمام محمد بن محبوب بهذه السيرة.

(15) السالمي : تحفة الأعيان ج 1 ص 183 ، 184

(16) الدوري قحطان عبد الرحمن، ورشي محمد عليان : أصول الدين الإسلامي، دار الفكر عمان، الطبعة الأولى، 1416هـ .

(17) كتيب صغير، وقد شرح عدة شروح، وطبع عدة طبعات.

- علم النظر والاستدلال : سمي بهذا الاسم لأنه يعتمد منهج النظر الفكري والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات أصول العقائد التي ثبتت بالنصوص الدينية.

- علم التوحيد والصفات : سمي بهذا الاسم لأن أشهر مباحثه، وأهمها وأخطرها، مبحثاً التوحيد والصفات الإلهية.

- أصول الدين : سمي بهذا الاسم لأنه أصل المعارف الدينية، لابتنائها عليه وتفرعها عنه ولأنه يتكفل ببيان ما يعتبر من أصول الدين وأركانه التي لا يتم إيمان بدونها، مقابل علم الفقه الذي يتكفل ببيان الفروع العملية للدين، ومقابل علم الأخلاق والتصوف الذي يعني بجانب السلوك والأخلاق على أساس من الذوق الروحي والوجدان القلبي.

- علم العقائد : سمي بهذا الاسم لأنه يتكفل بمبحث العقائد الدينية وإثباتها بالأدلة اليقينية، والدفاع عنها ضدّ العقائد والأفكار المخالفة لها.

وقد اشتهر علم الكلام بهذا الاسم لأسباب⁽¹⁸⁾ تمثلت بالأساس في أن أهم مسألة وقع الخلاف فيها واشتد النزاع حولها في القرون الأولى كانت مسألة (كلام الله) هل هو أزلي قائم بذاته، أم مخلوق ؟ فسمي العلم باسم أهم مسألة فيه.

2. المباحث الكلامية عند محمد بن محبوب

لا يمكن فصل آراء محمد بن محبوب الكلامية عن آراء غيره من أئمة وعلماء الإباضية الآخرين، وما هو إلا لبنة من بناء مدرسة متكاملة، بل قاعدة من قواعد بناء الفكر العماني في القرن الثالث الهجري.

(18) الدوري : أصول الدين، ص، 14-15.

وخلافاً للفقهاء الإباضي، فإنّ علم الكلام الإباضي جذب إليه انتباه الباحثين الأوروبيين⁽¹⁹⁾ وغيرهم نظراً لسبقه على غيره من مؤلفات المدارس الأخرى، وما احتواه من معالجة علمية وافية.

فمنذ القرون الأولى تسابقت أقلام للمساهمة بتقديم آراءهم حول القضايا المطروحة في تلك الفترة، كمسألة الخلافة والإمامة والقدر ومركب الكبيرة والرد على بدع الخوارج والمرجئة والمعتزلة.

وقد تخصّصت أطروحتنا للدكتوراه بعنوان "الفكر العقدي عند حتّى نهاية القرن الثّاني الهجري" (20) بإظهار هذا الإنتاج وتحليله.

ويعدّ الإمام محمد بن محبوب أبرز مفكّري المدرسة في القرن الثّالث الهجري، وخلف لنا آثاراً وأقوالاً كثيرة، وفي مجالات مختلفة.

أ - في استعمال المصطلحات :

لقد ورد في آثار محمد بن محبوب مجموعة كبيرة من الألفاظ، ذات دلالات اصطلاحية عقائدية، وقد يشكل بعضها منظومة كلامية متكاملة للدارسين ويمكن تنظيمها كالتّالي :

(19) اهتمّ ماسكيراى بدراسة علم الكلام الإباضي في ملاحظاته على الترجمة التي قام بها ل "سير أبي زكريا الوارجلاني".

- وقمّ أ. دي سيه موتيلسكي ترجمة فرنسية للعقيدة الإباضية من وضع عمرو بن جميع إلى المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين في الجزائر سنة 1905م ولحقّ العلامة غولد زيهر ونليو التشابه في الواقف والآراء بين الإباضيين والمعتزلة حول قضايا محددة... وغيرهم كثير قاموا بدراسات حول علم الكلام الإباضي ولا زالت هذه الدراسات تحظى بعناية ومتابعة من المختصين والمثقفين والأكاديميين. انظر : عمرو النامي : دراسات عن الإباضية ص.

(20) الوهبي، مسلم بن سالم : الفكر العقدي عند الإباضية حتّى نهاية القرن الثّاني الهجري، رسالة دكتوراه في العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات العربية والإسلامية بنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، 2001/5/25 م.

أسماء المخالفين له في المذهب من أهل التّوحيد	أسماء الموافقين له في المذهب
أهل قبلتنا	إخوان
أهل التّوحيد	السلف
أهل التّبديل	أئمة الهدى
أهل الخلاف	المسلمون
أئمة الضلال (خاص بحكام المخالفين)	أهل الدّعوة
الظّلمة (خاص بحكام المخالفين)	قادتنا
البغاة (خاص بحكام المخالفين)	العلماء
	قدوتنا

ولم يستعمل لفظة (المذهب الإباضي أو نهائيًا).

♦ ألفاظ عقائدية عامّة :

الولاية	العقل	النّعمة
البراءة	الوحي	توحيد
الوقوف	حرية	كلام الله
يسع	تقية	خلق القرآن
الإسلام	كنمان	الإيمان

♦ ألفاظ ذات معانٍ مرغوبة :

التّقوى	دعاء	العلم
التّوسّل على الله	العزيمة	شكر
الطاعة	التوكل	الأمر بالمعروف
الإخلاص	الجهاد	النّهي عن المنكر
الخوف	الشراء	القُدوة
التّوبة		

♦ ألفاظ ذات معانٍ مرفوضة :

الشك	الهُوى	الغيبة
الفتن	الشيطان	منكر
إحباط	الدنيا	شرك
الابتداع	المعاصي	كفر
الجهل	الصغائر	مرتد
إصرار	الكبائر	فسق

ومعظم تلك الألفاظ وردت بشكل مختصر وعرضي، ولا تعطي رؤية متكاملة لمعرفة رأي محمد بن محبوب فيها بصورة شاملة، إلا أن بعضها ورد بشكل أكثر وضوحاً، وتكشف عن آرائه بصورة تساعد الباحثين على الخروج بمادة كلامية شافية، وهذا ما سيوضح لنا في الصفحات المتبقية من البحث.

ومن بين المصطلحات المهمة التي يجدر الوقوف عندها ما يلي :

- الإسلام :

قال محمد بن محبوب : (فاعلموا - رحمننا الله وإياكم - أن اسم الإسلام وثوابه إنما أوجبه الله على القول والعمل بما أوجب الله من الفضل على عباده والإخلاص في القول والعمل وإنما تثبت الولاية على المسلمين لمن وافقهم فيما دانوا الله به من القول والعمل، فمن ضيّع القول والعمل لم تثبت له اسم الإسلام ولا ثوابه عند الله ولا عند المسلمين) (21).

وفي موضع آخر صرح محمد بن محبوب أن من ركب معصية كبيرة أو أصرّ على صغيرة خرج من اسم الإسلام (22).

فما هو الإسلام لغة واصطلاحاً؟ وما الفرق بينه وبين الإيمان؟

(21) سيرة إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج 2، ص 239.

(22) المرجع السابق، ص 141.

والإسلام لغة : من أسلم واستسلم أي انقاد وخضع (23) .

ويعني الإسلام اصطلاحاً الاستسلام والخضوع والانقياد التام لأوامر الشرع (24).

- الإيمان :

قال محمد بن محبوب : (لم يقبل رسول الله ﷺ) من الناس إلاّ الإيمان بتمام وظائفه وفرائضه المحددة وكذلك أوجب الله عليه في كتابه (25).

فما الإيمان لغة واصطلاحاً ؟

الإيمان لغة هو التصديق (26)، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ (27) أي بمصدق لنا.

والإيمان شرعاً هو اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان.

وقد يطلق الإيمان ويراد به التصديق، كما يظهر في حديث جبريل عليه السلام (28) وقد يطلق الإيمان ويراد به العمل، كما يظهر في آيات كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (29)، فقد سُمي عمل الصلاة إيماناً، وفي قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ (30).

(23) الجوهري، تاج الصحاح، ج 1، ص 131/ ابن منظور: لسان العرب، ج 12، ص 293.

(24) الكندي وعاشور: العقيدة (1)، ص 17/ الدوري : أصول الدين، ص 21.

(25) سيرته على أبو زياد خلف بن عزة، ضمن مخطوط (سير علماء الإباضية)، ص 222.

(26) الجوهري، تاج الصحاح، ج 1، ص 11.

(27) يوسف، 17.

(28) حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي (ص) عن الإيمان ؟ فقال النبي (ص) : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه...)

(29) البقرة، 143.

(30) المؤمنون : 1 - 4.

وحديث الرسول (ﷺ) عندما قال لوفد عبد القيس : (أتدرون ما الإيمان؟) ففسره بالشهادتين وذكر الصلاة والزكاة والحج⁽³¹⁾ .

من هنا يظهر أن الإيمان في الشرع له استعمالان⁽³²⁾ .

يطلق الاستعمال الأول على التصديق بأركان الإيمان التي جاءت في حديث جبريل - عليه السلام - وهي أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى".

ويطلق الاستعمال الثاني على الاستقامة في العقيدة، والاستقامة في العمل، يعني ذلك أن الإيمان يطلق على العقيدة الصحيحة مع العمل الصالح، والقول الصادق.

وبهذا التقسيم ينتفي الإشكال الذي يطراً على النفس أحياناً، فهناك آيات من كتاب الله تعالى تدل على أن المؤمن من جمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، وآيات تدل على أن المؤمن من آمن بما يجب الإيمان به، أي بما يجب التصديق به.

ويرى أن الإيمان والإسلام الشرعيين متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، أي أن دلالة الإسلام الشرعية مطابقة لدلالة الإيمان الشرعية.

قال أبو أيوب : " ... والإسلام ديننا، وهو من الإيمان، والإيمان من الإسلام، والتقوى من الإيمان والبر والوفاء من الإيمان، بعض ذلك من بعض على استكمال الإيمان بما فيه، وإقامة حدوده، والعمل بحقوقه " ⁽³³⁾.

(31) البخاري : باب أداء الخمس من الإيمان ج (53) /29/1 الترمذي : باب ما جاء في إضافة الفرائض إلى الإيمان، ح(2611) /8/5 أبو داود : باب في رد الإرجاء ج (4677) / مسند أحمد ح (2120) // 288.

(32) الخليلين أحمد بن حمد : جوهر الإيمان، مكتبة (مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، 1412هـ - / 1992م)، ص ص 4-5.

(33) أبو أيوب : سير أبو أيوب الحضرمي (ضمن كتاب السير والجوابات)، ج 2، ص 46.

وقال في موضع آخر : "وبالإيمان دخل أهل الجنة الجنة، والإسلام من الإيمان، والإيمان من الإسلام، والتقوى من الإيمان، بعض ذلك من بعض على استكمال ما فيه، وإتيان حقوقه، والوقوف على حدوده" (34).

وقد توسع زياد بن خلف البحراني في سيرته (35)، لتوضيح الترابط بين الإيمان والإسلام الشرعيين، لكنّ تعبير الإمام السالمي كان أكثر وضوحاً حيث قال : "اعلم أن للإيمان والإسلام في الشرع استعمالاً غير الاستعمال اللغوي، وذلك أنّ الشرع نقلهما عن معناهما اللغوي فاستعملهما مترادفين في مطلق الواجب، كان ذلك الواجب تصديقاً بالجنان فقط، أو تصديقاً بالجنان مع قول باللسان، أو كان معهما عمل لازم إتيانه، فمن أدّى جميع ما وجب عليه كان مؤمناً مسلماً عندنا، ومن أخلّ بشيء من الواجبات لا يسمّى مؤمناً مسلماً عندنا" (36).

فحقيقة الإسلام تتضمن أداء العبادات المطلوبة، فهي تصديق بالله وتنفيذ لأوامره، وحقيقة الإيمان تتطوي على المعرفة الصحيحة والقيام بحقوقها، ومن ثمّ فمعنى اليقين ملحوظ في الإسلام، ومعنى الخضوع ملحوظ في الإيمان، ولا يقبل إسلام خلا اليقين، كما لا يقبل إيمان تجرّد عن الخضوع لله، فلا يوجد شرعاً إيمان من غير إسلام ولا عكسه عند التحقيق" (37).

ومما يؤكّد ترادف الإيمان والإسلام قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ (38)، فسمّي إتيان الأمور به ديناً، والدين هو الإسلام لقوله تعالى :

(34) المصدر السابق، ص 60.

(35) ضمن مخطوط (سير علماء الإباضية)، ص 106 - 135.

(36) السالمي : مشارق أنوار العقول، ج 2، ص 197.

(37) الرواحي، ناصر بن سالم : نثار الجواهر (مخطوط، مكتبة خاصة بدون ترقيم)، ج 1، ص 51.

(38) البينة : 5.

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (39) ، وما ليس بإسلام فليس بدين، فعلم أن الإيمان إسلام (40).

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (41) ، أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين لئلا يهلك المؤمنون ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (42) ، يني لوطاً وبنيه والمؤمنون والمسلمون هنا سواء (43).

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (44) .

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه، وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذلك : مقتضى الاعتقاد في الله مقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (45) ، قد يستدل بها البعض في التفريق بين " الإيمان والإسلام " غير أن الإسلام الذي ذكرته الآية ليس الدين الحق الذي عناه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (46) ، بل هو خضوع عن قهر ونفاق، والإيمان الحق هو ما اقترن بالسمع والطاعة وتطهر من المعصية ومن النكوص عن أمر الله.

39) العمران : 19.

40) السالبي : المشارق، ج 2 ، ص198.

41) الذاريات : 35.

42) الذاريات : 36.

43) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن (دار الفكر، بيروت، ط1،

1407هـ، 1987م) ، ج 17 ، ص48.

44) يونس : 84.

45) الحجرات : 14.

46) آل عمران : 85.

وخلاصة القول : إنّ "الإيمان" و "الإسلام" وإن اختلفا في المعنى لكنهما متلازمان مترادفان في المعنى الاصطلاحي، وإن عبر في تعريفهما الاصطلاحي بألفاظ مختلفة لكنهما متحدان في المفهوم الشرعي.

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم وأيقن باليوم الآخر وصدق بما جاء به المرسلون سارع إلى استرضاء ربه والاستقامة على صراطه، وإلا فلا قيمة لكلمة يقولها الإنسان على لسانه وهو لا يدخل مسجداً أو لا يقيم فريضة أو لا يحترم شعيرة.

قال محمد بن محبوب : (فمن ضيع القول والعمل لم تثبت له اسم الإسلام) ⁽⁴⁷⁾ وعلى هذا بنى الإباضية عقيدتهم، قال أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة : بلغني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ﷺ) : (إياكم والحسد والظن والبغي فإنه لا حظ في الإسلام لمن فعل ذلك ولا حظ في الإسلام لمن فيه إحدى هذه الخصال) ⁽⁴⁸⁾، ويروي الربيع حديثاً عن النبي (ﷺ) قال : (إذا زنا الزاني سلب الإسلام فإذا أناب ألّبسه) ⁽⁴⁹⁾. وروى جابر بن زيد عن رسول الله (ﷺ) قال : (من حقر مسلماً فليس بمسلم) ⁽⁵⁰⁾.

قال جابر بن زيد وهو ينصح أحد أتباعه ك "فإن الإسلام سلم فأحرص من أن تكون من أهله، تأخذ من أدبه، وتثبت على خلقه، ومن ينتحل به غير ثبات عليه، ولا موالاته ينفي عنه " ⁽⁵¹⁾.

ويراد بمصطلح "مسلم" من الناحية الشرعية هو ذاك الشخص الذي صدق بكل ما يجب التصديق به، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله،

(47) سيرته إلى أهل المغرب ضمن (السير والجوابات) ، ج 2 ، ص 239.

(48) الربيع : مسند الإمام الربيع ، ج 2 ، ص 271 ، حديث رقم 699.

(49) الربيع : العقيدة (ضمن كتاب مسند الإمام الربيع) ج 3 ص 294 حديث رقم 766 ، وقد أخرج بنحوه أبي داود في كتاب السنة 15.

(50) ابن زيد جابر : مراسيل الإمام جابر (ضمن مسند الربيع) ، ج 4 ، ص 371 ، حديث رقم 973.

(51) ابن زيد جابر : رسائل الإمام جابر ، رسالة رقم 15.

واليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار، والقدر وأخبار القرآن... الخ، أي صدق بجميع ما يلزمه تصديقه مما علم من الدين بالضرورة وتلفظ بجميع ما يلزمه التلفظ به، من النطق بالحق وكف اللسان عن النطق بالباطل وعمل بجوارحه جميع ما يلزمه عمل، سواء إتيان المأمور به أو اجتناب المنهي عنه.

ومن هنا يظهر الترادف بين المراد بـ "المؤمن" و "المسلم" في الوجه الشرعي، تبعاً للترادف بين "الإيمان" و "الإسلام" الشرعيين.

ونتيجة لما سبق فإن مرتكب الكبيرة لا يسمى مسلماً، قال الإمام السالمي: "ومن أخل بشيء من الواجبات لا يسمى مؤمناً مسلماً عندنا، بل يخص باسم المنافق والفساق والعاصي... ونعني بمنع تسميته مسلماً مؤمناً أو مسلماً، فقط التسمية التي ينبني عليها حكم المؤمنين من الولاية واتباعها، أما إطلاق التسمية من غير ترتب حكمها عليها فجاز، لأننا نقول في حق المخل بالفرائض العمليات هذا مسلم ولا نريد به أنه ولي، لكن أطلقنا عليه اسم مسلم، إما باعتبار المعنى اللغوي وهو الانقياد، فإنه، وإن كان غير منقاد في الكل، فهو منقاد في البعض وإما أن يكون استعمالاً عرفياً عاماً حيث أطلقناه في مقابلة المشرك" (52).

إذن فمن الناحية غير الشرعية يجوز أن يسمى مرتكب الكبيرة مسلماً لاعتبارات تشمل العرف وهو الانقياد، فإنه وإن كان غير منقاد في الكل فهو منقاد في البعض.

والمقابلة حيث يسمى مسلماً في مقابلة المشرك.

كما تشمل هذه الاعتبارات الأحكام والحقوق الدنيوية، حيث له ما للمسلمين الشرعيّين وعليه ما عليهم سوى عدم ولايته وتجريح عدالته وتطبيق العقوبة عليه.

وعندما يحرص على نفي اسم "مؤمن" أو "مسلم" فإنهم يقصدون بذلك تطبيق الأحكام الدنيوية عليه التابعة للمصطلحات الشرعية، من عدم ولايته، وتجريح عدالته، وتطبيق الحدود عليه أو تعزيره، لعل ذلك يردعه ويزجره، فيثوب إلى رشده ويرجع عن زلته.

أمّا الأحكام الأخروية، فلا يقطع على شخص بعينه بعذاب ولا نعيم، لأن الأحكام الأخروية أحكام غيبية لا دخل لهم فيها.

- الكفر

قال محمد بن محبوب : (إنّ من ظلم حبة فما فوقها متعمداً ثمّ أصرّ عليها كفر) (53) وقال أيضاً : (... وأمّا من ركب الكبائر التي أوجب الله لأهلها النار وأوجب عليهم نكالا في الدنيا فإنه يكفر بركوبه من حين ركبه، ويستتاب فإن تاب قبلت توبته وإن أصرّ كان عدواً لأنّ المسلمين قالوا إنّ كلّ من كانت له ولاية مع المسلمين فإن أحدث حدثاً مكفراً - كبيرة من الآثام - كان قد أكفره ما قد ركب، وسمّوه بالكفر، ومن ركب ما لم يلزمه اسم الكفر بركوبه إيّاه - صغيرة من الآثام - لم يسموه بالكفر حتى يصرّ، فإذا أصرّ فأبى التوبة كان الإصرار كفراً، فسموه بما ركب بالإصرار كافراً) (54).

مما سبق يتضح أنّ كلّ من ركب كبيرة من الكبائر، أو أصرّ على صغيرة ورفض التوبة صار كافراً عند محمد بن محبوب فما هو الكفر؟ وما أقسامه؟

(53) سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج 2، ص 125.

(54) المرجع السابق، ص 241.

ويعني الكفر لغة الستر والإخفاء⁽⁵⁵⁾، ومنه تسمية الزارع كافراً، كما في قوله تعالى: ﴿كَمْثَلْ غَيْثٌ أَحَبُّ الزَّرَّاعِ نَبَاتَهُ﴾⁽⁵⁶⁾، ويأتي بمعنى الجحود، قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يَكْفُرُوهُ﴾⁽⁵⁷⁾.

أما اصطلاحاً، فهو يعني جميع ما أوجب الله عليه العقاب⁽⁵⁸⁾.

كما أطلقت كلمة "الكفر" على الشرك تارة، وعلى النفاق أخرى، والكفر ضد الإيمان، والكفران جحود النعم⁽⁵⁹⁾.

ويقسّم الكفر إلى نوعين: كفر شرك، وكفر نفاق (أو كفر نعمة)⁽⁶⁰⁾

والشرك نوعان⁽⁶¹⁾ أيضاً يطلق على النوع الأول:

جحود: ويراد به مطلق النفي سواءً كان نفيّاً للصانع ككفر من جحد وجحود الصانع المختار عزّ وجلّ، أو نفيّاً لوحدانيته ككفر من عبد مع الله غيره، أو نفيّاً لصفاته ككفر من وصف الله عزّ وجلّ بشيء من صفات غيره، أو أنكر شيئاً من كمالاته، أو أنكر شيئاً من أفعاله الثابتة بالبرهان القاطع كبعث الرسل وإنزال الكتب، أو إنكار آية من قرآنه وكاستحلال ما حرمه الله أو تحریم

(55) ابن منظور: لسان العرب، ج 5، ص 417.

(56) الحديد: 20.

(57) آل عمران: 15.

(58) فرحات وعاشور: العقيدة "2" (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ط1، 1419هـ/ 1998م)، ص 117.

(59) الشماخي، ابن العباس أحمد بن سعيد: مقدمة التوحيد وشروحها، (صححها وعلق عليها: إبراهيم اطفيش، مسقط، سلطنة عمان)، ص 129.

(60) انظر إلى: سيرة أبو أيوب (ضمن السير والجوابات)، ج 1 ص 56، 49/57/محبوب بن الرحيل: رسالة محبوب إلى أهل عمان (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 293/منير: سيرة منير بن النير (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 229، رسالة أبي عبيدة وحاجب في الرد على المرجئة (ضمن مخطوطة السيد)، ص 56/الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن: كتاب مسائل نفوسه، ص 42 - 43.

(61) انظر المصدر السابق في آخر توثيق، وانظر السالمي: المشارق ج 2 ص 312، وفرحات وعاشور: العقيدة "2"، ص 95.

ما أحله الله تعالى، قال محمد بن محبوب : (من جحد آية من كتاب الله فهو مشرك) (62).

ويطلق على النوع الثاني مساواة : وذلك بجعل شريك الله تعالى في ذاته أو صفات أو أفعاله، والذي يجمع النوعين معاً : أن يجحد ما علم من الدين بالضرورة.

وهذا النوع من الكفر - كفر الشرك - هو خروج من الملة الإسلامية، حيث أن صاحبه أنكر ما علم من الدين بالضرورة مما نصّ عليه في الكتاب العزيز أو السنة أو أجمعت عليه الأمة إجماعاً قاطعاً .

أما كفر النعمة، فهو الاجترأ على الله بترك ما فرض، كالصلاة والصوم والزكاة، أو ارتكاب ما حرم كالزنا والسرقه وشرب الخمر، من غير استحلال للفعل أو الترك (63).

بمعنى ترك ما أوجبه الله تعالى مع الدينونة بوجوبه، أو ارتكاب ما حرّمه الله مع الدينونة بتحريمه.

وهذا النوع من الكفر - كفر نعمة أو كفر نفاق - لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام، إذ تبقى له جميع أحكام الإسلام في الدنيا ما عدا الولاية وتجريح العدالة، وتجوز مناكحته وتبقى موارثته، ويدفن مع المسلمين ويصلى عليه ومعه (64).

وهذا هو من الفوارق بين والخوارج، حيث إن الخوارج حكموا على مرتكب الكبيرة بالشرك فأخرجوه من الملة، بينما الإباضية لم يفعلوا هذا منذ

(62) الكندي : محمد بن ابراهيم : بيان الشرع، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط1، 1402هـ / 1982م، ج1، ص266.

(63) الخليلي أحمد بن حمد: جواهر التفسير، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، 1409هـ / 1988م ج2، ص229.

(64) أبو أيوب : سيرة أبو أيوب في صفة الإسلام (ضمن كتاب الشمس الشارقة) ص122 - 123 / سيرة محبوب إلى أهل حضرموت (ضمن السير والجوابات)، ج1، ص306، 312، 314، 318.

نشأتهم وإلى وقتنا هذا، ولا فرق معهم بين من كان إباضياً أو غير إباضي، فكل من ركب كبيرة فهو كافرٌ نعمة ويطلقون عليه أحياناً كافر كفر نفاق.

وقد أورد الإمام الربيع في كتابه "العقيدة" ضمن مسند الإمام الربيع باباً بعنوان "باب الحجة على من لا يرى الصلاة على أهل القبلة، ولا يرى الصلاة خلف كل بار وفاجر" (65) وكان في هذا ردّاً على الأزارقة والخوارج، ومن هذه الأحاديث ما يأتي :

قال الربيع بن حبيب : سمعت جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي (ﷺ) قال : (الصلاة جائزة خلف كل بار وفاجر، وصلوا على كل بار وفاجر) (66). وفي حديث آخر يرويه الربيع عن النبي (ﷺ) قال : (الصلاة على موتى أهل القبلة المقرين بالله ورسوله واليوم الآخر واجبة، فمن أنكرها فقد كفر) (67).

وقد بيّن أبو حمزة الشاري موقف الإباضية من كافة أصناف الناس، فقال : " يا أهل المدينة : الناس منا ونحن منهم إلا مشركاً عابد وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً جائراً " (68).

ب - في العلم :

العبودية لله تعالى هي الغاية من خلق الإنسان قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ (69).

والتعبد لله عز وجل عند محمد بن محبوب (70) وغيره يحتاج إلى علم وتفقه في الدين، وقد قال وهو يعدّد أنواع القربات إلى الله تعالى : ﴿ والعمل

(65) الربيع : العقيدة (ضمن مسند الربيع)، ج 3، ص 297.

(66) المرجع السابق حديث رقم 776 وقد رواه ابن حنبل، ج 1 ص 36، 24 ورواه البخاري في كتاب الصلاة 32.

(67) الربيع : العقيدة (ضمن مسند الربيع)، حديث رقم 777، ج 3، ص 297.

(68) أبو حمزة : خطب حمزة (ضمن حياة عمان الفكرية)، ص 286.

(69) الذاريات : 56.

(70) انظر : سيرته إلى أبي زياد خلف بن عزة، ضمن مخطوط (سير علماء الإباضية)، ص 221.

على البصائر ﴿٧١﴾ ليؤكد بذلك على أن أي عمل يقوم به المسلم لا بد أن يكون موافقاً للشرع.

بل إن التعبد بدون علم مذموم ممقوت، حتى وصل بالإمام محمد بن محبوب إلى ازدراء المتسكين المتعبدين التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٢) وأحياناً نجده يحذر إمام أهل حضرموت من أن يتخذ المتعبدون بغير علم بطانة له (٧٣).

ويذهب إلى أن الإنسان لا يعذر بالجهل في ارتكابه للمنكر حيث قال : (ولم يعذر من أنكر المنكر بمنكر مثله، لأن كل راكب منكر بعلم أو جهل فهو من أهله) (٧٤) ، أي من أهل المنكر.

والعلم : هو صفة يتجلى بها المعلوم على ما هو عليه، وقيل إدراك الشيء على حقيقته (٧٥).

فالعلم رأس كل فضيلة، والجهل رأس كل رذيلة، والعلم مطلب ديني وحضاري به يُعرف النافع من الضار، وبه ترقى الأفراد والمجتمعات، وبعدهم تتخلف وتنهار.

وطلب العلم فرض واجب على كل مكلف لنص الكتاب والسنة والإجماع : أما الكتاب فقول الله تعالى : ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ (٧٦)، وآيات أخرى كثيرة تثبت وجوب طلب العلم، وأما السنة فقول النبي (ﷺ) : (طلب

(71) ابن محبوب محمد: سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج2، ص224.

(72) ابن محبوب محمد: سيرته إلى أهل حضرموت، ضمن مخطوط (سير علماء الإباضية)، ص229، 232.

(73) المرجع السابق : 230.

(74) ابن محبوب محمد : سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج2، ص236.

(75) السالمي : المشارق، ج 1، ص117.

(76) النحل : 43.

العلم فريضة على كل محتلم) وفي رواية (على كل مسلم) وأما الإجماع فلا أحد يخالف ما ذكر سابقاً.

ومن هذا المنطلق عدّ ، (العلم) من قضايا العقيدة، فما يخلو مؤلف من مؤلفاتهم العقديّة (77)، إلّا ويفرد للعلم موضعاً بين مفردات العقيدة.

ج - في التوحيد :

لفظ الجلالة وإفراده بالألوهية، ووصفه بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص، وصدق العبودية والخضوع والاستكانة، والرجاء فيه، والخوف منه، من أكثر المعاني تكراراً ووضوحاً في آثار محمد بن محبوب، ودائماً يستهلّ رسائله بالحمد والثناء على الله عزّ وجلّ، كقوله : ﴿ أحمد الله الذي لا إله إلا هو ﴾ (78).

فما هو المراد بالله عز وجل ؟ وما المراد بتوحيده ؟

الله وقد عرف الإمام السالمي بقوله : علم على الذات الواجب الوجود لذاته، المستحق لجميع المحامد (79).

والله - تبارك وتعالى - أهل الحمد والمجد وأهل التقوى والمغفرة، لا نحصي عليه ثناء، ولا نبليح حقه توقيراً وإجلالاً. ومهما كتبت وكتب غيري من جنس البشر فلن نصل في وصف الذات الإلهية بما وصف به نفسه وذكره في قرآنه.

(77) الربيع : مسند الربيع ج 1 ص 29 - 35 / الأزكوي : جامع ابن جعفر ج 1 ص 45 - 64 / السالمي : المشارق ، ج 1 ، ص 115 269 / الكندي : المصنف، الجزء الأول بأكمله.

(78) ابن محبوب محمد : سيرته إلى أبي زياد خلف بن عذرة، ضمن مخطوط (سير علماء الإباضية)، ص 221 / سيرته إلى إمام حضرموت، ضمن نفس المخطوط، ص 225 / سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج 2 ، ص 223.

(79) المشارق : ج 1 ص 58.

"وإن البشر - منذ كتب لهم تاريخ، إلى أن تهمد لهم على الأرض حركة - إذا نسوا الله وكفروا به، ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ولا نقص ذرة من سلطانه، ولا كفّ شعاعاً من ضيائه، ولا غصّ بريقاً من كبريائه، فهو - سبحانه - أغنى بحوله، وأعظم بذاته وصفاته وأوسع في ملكوته وجبرونه من أن ينال منه وهم واهم أو جهل جاهل" (80).

والإيمان بالله تعالى أصلّ عليه مدار الإسلام وهو لبّ القرآن وغايته الكبرى، وأصل تقوم عليه كلّ الفروع، وقاعدة تقف عليها كلّ فكرة وينبع منه كل إيمان وتشريع.

ومن أجل توحيد الله أرسل الرّسل، وأنزلت الكتب، وجاهد النّبيون والمرسلون وأتباعهم، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن تبيّن أنّ التّوحيد هو الأصل الذي لا محيد عنه بل يهلك من خالفه واتبع هواه، ﴿ذلّم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كلّ شيء وكيل﴾ (81).

﴿قل هو ربّي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾ (82)، ﴿ذلّم الله ربكم لا إله إلا هو فاتّي تصرفون﴾ (83).

ومعرفة الإلاه مركوزة في النّفس بالفطرة ﴿فطرة الله التي فطر النّاس عليها﴾ (84) وقضيّة الألوهيّة بدهيّة وثابتة ومعظم مؤلّفات في القرون الأولى تنطلق من هذه القضيّة، وتتصدّر بالتّقديس والحمد والثّناء على الله، وذكر شيء من صفاته.

ويظهر واضحاً في فكر أنّهم اتّخذوا معياراً محدّداً للتفريق بين الموحّد والمشرّك، وهذا المعيار يتلخّص في ثلاث جمل هي :

(80) الغزالي : عقيدة المسلم، ص16.

(81) الأنعام : 102.

(82) الرعد : 30.

(83) الزمر : 6.

(84) الروم : 30.

شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله
وشهادة أن ما جاء به حق من عند الله.

قال تعالى : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴾ (85).

قال محبوب بن الرحيل : " وإن جميع قولنا ممن يقر بشهادة أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بجميع ما جاء من
الله، أنهم مقرون وأنهم بإقرارهم خارجون من الشرك، لأن الشرك لا يكون إلا
إنكاراً وتكذيباً وجحوداً، والتوحيد إقرارٌ وتوحي " (86).

ونفس العبارة وردت مع محمد بن محبوب في سيرته إلى أهل
حضر موت (87)، وعندما كان قاضياً بصحار يدخل المشركون في الإسلام فيقول
لهم : (قل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله،
وأشهد أن ما جاء به محمد من عند الله هو الحق المبين) (88).

هذا المعيار - الشهادات الثلاث - عبّر عنه المتأخرون بمصطلح "
الجملة " فعندما ترد كلمة "الجملة " في مؤلفات عقائد (89) فإنما يقصد بها
الشهادات الثلاث، وما دامت هذه الجملة معياراً بين الشرك والتوحيد (90)، فهي

(85) التغابن : 8.

(86) محبوب بن الرحيل : سيرة محبوب إلى أهل عمان (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 293.

(87) ضمن مخطوطة (سير علماء الإباضية) ص 229.

(88) البطاشي : أتحاف الأعيان، ج 1، ص 252.

(89) انظر مثلاً : عمرو بن فتح : أصول الدينونة الصافية / الملشوطي (تغورين بن عيسى) :
أصول الدين / الجبيلي : قواعد الإسلام / أبو عمار عبد الكافي : الموجز / ابن جميع (أبو
حفص) مقدمة التوحيد وشروحها / بكير سعيد أعوش : دراسات إسلامية في الأصول الإباضية /
الثميني : شرح الفريدة النونية / الجعبري : البعد الحضاري للعقيدة الإباضية / السالمي :
مشارك الأنوار.

(90) قال عمرو بن فتح وهو من علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري : " فأول ما نحن
ذاكره : الإقرار لله بالوحدانية وأنه لا يشبهه شيء من خلقه، وليس له شريك، وأن محمداً عبده
ورسوله، والإقرار بما جاء به أنه الحق من الله، فمن أقرّ بهذا فقد خرج من الشرك، فهذه محنة
الفصل بين التوحيد وجميع ملل الشرك الخمسة [اليهود - النصارى - الصابئين - المجوس -

أول ما يجب اعتقاده على الإنسان وإذا وصل حدّ التكليف ولم يعتقد بها، أصبح من الهالكين.

وقد جاء التفسير بمصطلح "الجملة" عن الشهادات الثلاث، لاشتمالها على كليات الإيمان ومنهج الحياة.

ويقصد بالتوحيد إفراد المعبود بالعبادة، والتّصديق بوحداية الخالق ذاتاً وصفات وأفعالاً، والإقرار بوجوب وجود موجد الموجودات، وهو الله الذي لا إله إلا هو، متعالٍ عن صفات المخلوقات فلا أول له ولا آخر، وهو شيء لا كالأشياء، لأن أوليته سابقة لكل شيء مخلوق، وأخريته باقية بعد فناء كل مخلوق، فسبق الله لا بداية له، وبقاء الله لا نهاية له، فالأزلية لله وحده لأن ما سواه مخلوق والمخلوق موجود بعد عدم.

واعتباراً بهذه فلا يصحّ التّوحيد إلا بإفراد الخالق عن المخلوق في "ذاته وأقواله وأفعاله وأحكامه وعبادته وصفاته وسائر كمالاته" (91).

"فهو الواحد الأحد الفرد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وليس له شبيه ولا مثل ولا نظير ولا عدل ولا ند ولا ضد" (92).

الوثنية [وإلى هذه كان رسول الله (ص) يدعو المشركين، فمن استجاب له كان مسلماً، ثم ابتلاهم الله بعد ذلك بالفرائض ومخصمهم بها فقال عز وجل : (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا) [العنكبوت 1 - 3] في عمل ما أقروا به وهم المؤمنون، (وليعلمن الكاذبين) أهل الخيانة والتضيق لعمل ما أقروا به، فسماهم الله منافقين، اسماً لم يسم به أحدا من ملل الشرك، فيهم كانت الحدود فهم مع المؤمنين، جرت بينهم الحقوق من المناكحة والمواريثة، وأكل الذبائح، والمدافنة مع المسلمين... الخ. لا يبطل منهم بنفاقهم إلا ما أبطله القرآن، من تحريم الولاية والتسمية بالإيمان، وقد نفاه الله عنهم، وتسميتهم بالكفر والنفاق، وتحريم التسمية لهم بالشرك، ما لم يذكروا ما أقروا به من التوحيد، وإن كان الكفر يجمعهم" (انظر : عمروس: الدينونة الصافية ص 59 - 60).

(91) الثلاثي، عمر رمضان: نخبة المتين من أصول بتغورين (ضمن كتاب تحت عنوان "كتب مختارة" مطبعة العربية، غرداية، الجزائر) ص 175.

(92) محبوب بن الرحيل: سيرة محبوب إلى أهل عمان (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 294.

د - في مسألة خلق القرآن :

تعتبر مسألة خلق القرآن من مسائل الصفات الإلهية التابعة لمباحث التوحيد، وقد صرح بذلك الإمام محمد بن محبوب نفسه حيث قال : (والقرآن من أحكام التوحيد وفروعه) (93).

ويعدُّ محمد بن محبوب أول من اعتنق القول بخلق القرآن من إباضية المشرق وخالفه أصحابه من أهل المشرق لقرون طويلة، حتى التحم الرأي المشرقي مع الرأي المغربي باعتقاد خلق القرآن في قرابة القرن السادس الهجري.

ومسألة "خلق القرآن" من المسائل التي شغلت حيزاً كبيراً في الفكر الإسلامي، وكثر حولها الجدل الممزوج بالقتل والتكفير، حتى سمي علم العقائد بعلم الكلام لكثرة ما وقع من كلام حول هذه المسألة بالذات، لذا من الأهمية بمكان إعطاء صورة توضيحية مبسطة حول هذه المسألة.

والخلق لغة هو الإبداع على غير سبق مثال، وفي اصطلاح أصحاب الديانات هو إخراج الشيء من العدم على الوجود، وبهذا المفهوم هو فعلٌ من أفعال الله تعالى الخاصة به التي لا يجوز أن تصدر عن غيره (94) إلا مجازاً.

والقرآن هو الكلام المنزل بحروفه وكلماته على النبي محمد (ﷺ) المعجز بتركيبه ومعانيه المنقول عنه بالتواتر القطعي (95).

لقد كثر الخلاف حول مسألة "خلق القرآن"، فبرزت نار الفتنة بين طوائف الأمة التي انقسمت إلى شيع وأحزاب (كل حزب بما لديهم فرحون) (96) ولعلَّ أبا شاكِر الديصاني (97)، يعدُّ من أبرز المساهمين في دعم هذا الخلاف.

93) الكندي : بيان الشرع ، ج1، ص150.

94) الخليلي، أحمد بن حمد، الحق الدامغ، مطابع النهضة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، 1409هـ 1989م ص99.

95) الخليلي : الحق الدامغ، ص99.

96) المؤمنون : 53.

97) السالمي : التحفة، ج1، ص156.

فهناك من المسلمين من يقول : القرآن قديم غير مخلوق وهناك من يقول : القرآن مخلوق وبلغت المسألة أوجها في عصر المأمون الذي صبّ جام غضبه على كل من خالفه فقتل من قتل وعذب من عذب، على رأسهم الإمام أحمد بن حنبل الذي صمد للعذاب وهو يردد أن القرآن غير مخلوق (98).

وصلت القضية إلى أوساط فتباينت آراؤهم في بداية الأمر، حتى التحم الرأي المشرقي مع الرأي المغربي في القرن السادس الهجري على القول بخلق القرآن (99).

لقد اعتنق إباضية المغرب القول بأن القرآن مخلوق، ولم يحدث بينهم خلاف فيها، وأقدم وثيقة تعالج هذه المسألة هي رسالة ألفها الإمام الرستمي أبو اليقظان محمد بن أفلح (ت : 281هـ/894 م) ناقش فيها المسألة بتفصيل مقدماً حججاً قوية لدعم عقيدة خلق القرآن (100).

ولما وصلت المسألة إلى عمان (اجتمع الأسياخ في منزل، منهم أبو زياد، وسعيد بن محرز، ومحمد بن هاشم، محمد بن محبوب، وغيرهم من الأسياخ، فتذاكروا في القرآن فقال محمد بن محبوب : أنا أقول إن القرآن مخلوق. فغضب محمد بن هاشم وقال : أنا أخرج من عمان ولا أقيم فيها. فظن محمد بن محبوب أنه يعرض به فقال : بل أني أولى بالخروج من عمان، لأنني فيها غريب.

فخرج محمد بن هاشم من البيت وهو يقول : ليتني مت قبل هذا اليوم ثم تفرقوا، ثم اجتمعوا بعد ذلك فرجع ابن محبوب عن قوله. واجتمع مع قولهم : إن الله خالق كل شيء وما سوى الله مخلوق، وأن القرآن كلام الله ووحيه

(98) النشار علي سامي: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، ج1، ص274.

(99) الجعبري : البعد الحضاري، ص352.

(100) البرادي، أبو القاسم بن ابراهيم (ت : 697 هـ) الجواهر المنقاة، طبعة حجرية ورسالة أبو اليقظان تقع في ص182 - 200.

وكتابه وتنزيله على محمد النبي (ﷺ) وأمروا الإمام مهنا بالشّد على من يقول إن القرآن مخلوق (101).

قال السّالمي : (وظاهره أنّ الأشياخ توقّفوا عن إطلاق القول بخلق القرآن، وأمروا بالشّد على من أطلق، وأدخلوه تحت معنى الآية من قوله تعالى: ﴿خالق كلّ شيء﴾ (102) فيستلزم أنّه من جملة الأشياء المخلوقة، لكن لا يصرّحون بذلك نطقاً) (103).

ولما رأى محمد بن محبوب أنّ أصحابه لا يوافقونه على التصريح بخلق القرآن، تركه خوفاً من الشقاق وحفظاً لوحدة الصفّ، ورجع إلى الإجمال الذي اتّفقوا عليه فقال : (القرآن كلام الله ووحيه ولا أقول مخلوقاً ولا غير مخلوق) (104).

ويرى الإمام السّالمي أنّ عدم تصريح سلف أئمة المشاركة بخلق القرآن وسائر الكتب المنزلة راجع إلى فرارهم من مقالة الجهمية بحدوث صفات الله تعالى الدّائبة لخوفهم أن تكون المسألة مفرعة على هذا الاعتقاد، فتوقّفوا عن إطلاق القول بخلق القرآن صراحاً، مع اعتقادهم الحقّ في حكمه بإدخاله في جملة المخلوقات اعتقاداً.

فهذا هو المعنى الذي لحظوه، ولم يكن مرادهم نفي حقيقة الخلق عن الكتب المنزلة، ولا أرادوا إثبات قديم مع الله حاشاهم عن ذلك، وأنّ الذي لحظوه لمعنى دقيق لا يسقط على فهمه إلّا من منحه الله تعالى من مواهبه (105).

قال سماحة المفتي الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في كتابه "الحق الدامغ" الذي وضع المقتل على المقتل حول هذه القضية : (... وقد استقرت أسباب

(101) الكندي : بيان الشرع، ج 1، ص 154/ السالمي: التحفة، ج 1، ص 156.

(102) الرّعد، 16.

(103) السالمي : التحفة، ج 1، ص 157.

(104) الكندي : بيان الشرع، ج 1، ص 150.

(105) السالمي : التحفة، ج 1، ص 157.

اللبس في هذه المسألة، حتى اشتدّ نكير طائفة من المسلمين على من قال بخلق القرآن فوجدته يعود إلى أمرين اثنين :

يتمثّل أولهما في التباس القرآن المنزل في أفهامهم بالكلام النفسي الذي يراد به نفي الخرس.

ويكمن الأمر الثاني في التباس القرآن بعلم الله سبحانه وتعالى به، مع أن صفتي الكلام والعلم قديمتان (106) .

وتفصيل هذه الأسباب مع أدلة النافين والقائلين بالخلق ينظر إلى كتاب سماحة المفتي المذكور، فلا يكاد من شاردة وواردة إلا وأتى بها بشكل علمي وأسلوب هادئ.

هـ - الكلام في القدر :

(قال أبو عبد الله رحمه الله : يسمّون أصحابنا المجبرة. يقولون : إنهم يقولون إنّ الله تعالى جبر العباد على المعصية وليس ذلك من قول أصحابنا، يقولون : إنّ الله تعالى خلق الطاعة والمعصية وأمر بالطاعة ونهى عن المعصية، وعلم من يعمل بالطاعة والمعصية فنفذ علم الله كما علم. وقول أصحابنا إنّ الله تعالى ما أجبر أحداً على طاعة ولا معصية وإنّ الله تعالى أمر بالطاعة وأحبها ورضيها وربّها، فمن عمل بها فبعلم الله والله المنانُ عليه، وإنّ الله تعالى نهى عن المعصية وأبغضها وكرها وقبحها، فمن عمل بها فبعلم الله والله الحجة عليه) (107).

هذه المسألة من مسائل الإيمان بالقضاء والقدر. فما معنى القضاء والقدر ؟ وما وجهة نظر أبي عبد الله وأصحابه فيه ؟

(106) الخليلي : الحق الدامغ، ص108.

(107) العوتبي : الضياء، ج 2، ص137+138.

والقدر لغة من قدر يقدر ويقال القدر بفتح الدال أو بسكونها، ويجمع على أقدار، ويورد صاحب لسان العرب عن لفظة "القدر" ما لا يقل عن ثمانية عشر تفسيراً نذكر منها : قضى، حكم، التسوية، الضيق، التصوير، الأمر... الخ⁽¹⁰⁸⁾ وكلها تحوم حول قدرة الله المطلقة .

وتعني كلمة القضاء الحكم ويقال قضى يقضي قضاءً ولها أيضاً معاني لغوية كثيرة منها ك الخلق، الحكم، الأمر، الإخبار ... الخ⁽¹⁰⁹⁾.

أما اصطلاحاً، فالقضاء هو علم الله عز وجل في الأزل بالأشياء كلها على ما ستكون عليه في المستقبل⁽¹¹⁰⁾.

ويعني القدر إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي المتعلق بها⁽¹¹¹⁾، بمعنى أنّ القضاء هو إيجاد الله الأشياء في اللّوح المحفوظ دفعة واحدة، والقدر هو إيجاد المكونات في المواد⁽¹¹²⁾.

والمراد من الإيمان بالقضاء والقدر هو : التصديق بأنّ الباري عزّ وجلّ عالم بالمخلوقات جميعاً في الأزل، وجدت بإرادته ووفق علمه الأزلي. قال تعالى : ﴿إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾⁽¹¹³⁾، وقال أيضاً : ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾⁽¹¹⁴⁾، فالله سبحانه وتعالى عالمٌ في الأزل بأنّ المرء يباشر الأسباب بإرادته واختياره المحض، ثمّ يجازيه على ما فعل.

(108) ابن منظور : لسان العرب، ج 5، ص 209.

(109) المصدر السابق، ص 278.

(110) البوطي : كبرى اليقينيات، ص 160 / حبيكة : العقيدة الإسلامية، ص 626 / الكندي وعاشور : العقيدة، "1"، ص 179.

(111) المصدر السابق.

(112) الكندي وعاشور : العقيدة، "1"، ص 179.

(113) يس : 12.

(114) يونس : 61.

وكونه عزّ وجلّ يعلم ما يفعله العبد في المستقبل لا يعني ذلك أن الله تعالى يجبره على ذلك الفعل، فليست هناك علاقة بين الإيمان بالقضاء والقدر، وبين الجبر والاختيار، لأن العلم كاشفٌ عما سيقع وغير مؤثر فيه، لذلك قيل : "صفة العلم" - علم الله - صفة كشف وليست صفة تأثير.

والعلم الإلهي يمتاز بأنه يكشف الحاضر والماضي السحيق والمستقبل البعيد، فيكشف الأشياء على ما كانت عليه وعلى ما ستكون عليه وهي كائنة سواء بسواء.

ومن هنا وجب الإيمان بأن الله وحده صفات العلم الواسع والإرادة الشاملة والقدرة الكاملة، وأنه - سبحانه - فعالٌ لما يفعل وعلى هذا قامت عقيدة القضاء والقدر.

وهكذا تلاحظ أنّ أبا عبد الله محمد بن محبوب وأصحابه اتخذوا موقفاً وسطاً بين الجبر⁽¹¹⁵⁾ والخلق⁽¹¹⁶⁾، فلم يكن الإنسان مجبراً على المعصية فيكون الله تعالى ظالماً لعباده، ولم يكن الإنسان خالقاً فيشارك الله عزّ وجلّ في أخصّ صفاته.

(115) قال الشهرستاني : "الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى والجبرية أصناف : فالجبرية الخالصة : هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة : هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل، وسمي ذلك كسباً، فليس بجبري " انظر كتابه : الملل والنحل ص85.

وينسب الجبر إلى الجعد بن درهم وجه بن صفوان ومضمون قولهم : إن الإنسان مجبور في أفعاله، وهو كريشة معلقة في الهواء، تحركها الأقدار كيف شاعت، أي أن مذهبيهم يقوم على نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى، وتنسب الأفعال إلى الإنسان مجازاً، كما تنسب إلى الجمادات، مثلما يقال : أثمرت الشجرة، أو جرى الماء... الخ.

انظر الشهرستاني : الملل والنحل ص86 / البغدادي : الفرق بين الفرق ص199 / قحطان الدوري : أصول الدين ص165 / النشار، علي سامي : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (دار المعارف، القاهرة، ط8، 1401هـ - 1081م ج1 ص343.

(116) ينسب نفي خلق الله أفعال العباد، وإن الإنسان حرٌّ في خلق أفعاله، إلى غيلان الدمشقي، ومعيد الجهني، الذين ينسب إليهما مذهب القدرية. الغرابي، علي مصطفى : تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة الكلام عند المسلمين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1405هـ / 1985م، ص21.

ومما يميز بين القدرية والمعتزلة أن المعتزلة يجمعون على أن الله عالم أزلاً بأفعاله خلقه، فلم يزل عالماً بمن سيؤمن وبمن سيكفر، بينما يرى القدرية أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وقوعها. انظر : قحطان : أصول الدين الإسلامي، ص166.

وعلى كل حال فهم يرون أنّ قدرة العبد وإن لم تكن خالقة فهي كاسبة، لأنّ الكسب نتيجة لتوجيه العبد إرادته شطر العمل، فإذا أراد العبد عمل الخير خلق الله فيه القدرة على عمله واستحق الثواب بكسبه إيّاه، وإذا أراد العبد الشرّ خلق الله فيه القدرة عليه واستحق العقاب بكسبه، فأفعال العباد الاختيارية تتعلق بها قدرتان أو جهتان : قدرة الله تعالى على الإيجاد، وقدرة العبد وفق إرادته تعالى على الكسب.

(قال أبو عبد الله : القدر مما يسع جهله حتى يركب الجاهل به شيئاً مما يوجب على من ارتكبه الكفر) (117).

إنّ مسألة القدر إذن هي من المسائل التي يسع جهلها حتى يرتكب الجاهل بها شيئاً مما يوجب عليه الكفر كأن يعتقد أنّ الإنسان هو الذي يخلق أفعاله على جهة الحقيقة، فمن اعتقد ذلك فقد كفر، لأنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق الحقيقي للأفعال، وما دور الإنسان إلّا اكتسابها باختياره وعلى ضوء هذا الاختيار يثاب المرء أو يعاقب.

و - في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف له تعريفات كثيرة منها : الأمر بإتباع محمد (ﷺ) ودينه الذي جاء به من عند ربه (118).

النهي عن المنكر له تعريفات كثيرة منها : طلب الكفّ عن فعل أو قول ما، ليس فيه رضى الله تعالى (119).

(117) العوتبي : الضياء، ج 2، ص 138.

(118) الربخي، صالح بن سليم: إغاثة الملهوف بالسيف المنكر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (تأليف الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي)، دراسة وتحقيق رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، الأردن، 1998/4/28 م، ص 76.

(119) المرجع السابق، ص 77.

وقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعدُّ الهمَّ الأول الذي شغل بال إمامنا محمد بن محبوب، فمع كل لفظة لسان، أو إطفاء فكر، أو مدة قلم تلحظ منه ذلك بكل وضوح.

وقد سخر حياته كلّها لهذا الأمر، وكيف لا كون كذلك وهو القائل مخاطباً أهل حضرموت (اشتروا من الله أنفسكم بها وأميتوها لحياتها ولا تتأولوا تأويل المبطلين وتحريف الضالّين الذين زعموا أنّ تأويل قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (120) فقد بلغنا أنّ أبابكر الصديق - رضي الله عنه - ذكر هذه الآية على المنبر فقال : يا أيُّها الناس لا تأولوا هذه الآية على غير تأويلها فتضلّوا فإنّي سمعت رسول الله (ﷺ) يقول على هذه الآية ما ترك القوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا أعمهم الله بعقاب، وفي حديث آخر إذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلّط الله عليهم شرارهم ثمّ يدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لأن أسمع بنار وقعت في هذا المسجد فأحرقت ما أحرقت أيسر عليّ من أسمع ببدعة لا مغير لها، وسمعنا في تفسير هذه الآية : لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الهدى فمن أخذ بهذا الهدى لم يضره من ضلّ عنه صدق الله هذا هو الحق المبين) (121).

وقال في موضع آخر : (يا معشر المسلمين من أهل حضرموت ويا أهل المعروف والنهي عن المنكر بايعتم إمامكم وأعطيتموه عهدكم وميثاقكم على السمع والطاعة ما أطاع الله ورسوله وأنتم تقرّون أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان وتقرّون أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلوب

(120) المائدة : 105.

(121) سيرته إلى إمام حضرموت ص232.

والأيدي والألسنة، وميت الأحياء هو الذي لم ينكر المنكر بقلبه ولا بيده ولا بلسانه (122).

ويشدد ابن محبوب على الأمرين بالمعروف والتاركين له فيقول : (بلغني أن أبا ذر - رحمه الله - كان يقول : لعن الله الأمرين بالمعروف والتاركين له، ولعن الله الناهيين عن المنكر الزاكين له (123)، ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (124).

وعموماً تظهر أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من خلال واقعيتها التطبيقية والعملية تنفيذاً للنص القرآني : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (125).

وتنفيذاً للحديث : ﴿ من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ﴾ (126).

ومن هنا أصبح هذا الأصل - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فرضاً عملياً لا يتصل فقط بالبحث النظري المجرد، ويكفي في تطبيقه مجرد القول أو الاعتقاد، بل لا بد من تحقيقه عملياً بالنضال الدائم في سبيل الله وإقامة أحكامه.

(122) المرجع السابق ص 227.

(123) المرجع السابق ص 228.

(124) الصف : 3، 2.

(125) آل عمران : 104.

(126) مسلم : ك (1)، ب (20)، ح (49)، ج 1، ص 69 / أبو داود : ك (2)، ب (249)، ح (1140)، ج 1، ص 424 / الترمذي : ك (34)، ب (11)، ح (2179)، ج 4، ص 71 / النسائي : ك (47)، ب (17)، ح (5024)، ج 8، ص 486 / ابن ماجه : ك (5)، ب (155)، ح (1275)، ج 1، ص 404.

وإذا لم يدرج أصل الأمر المعروف والنهي عن المنكر من بين أصول العقيدة كمبحث نظري عند، فإنما تفسير ذلك انسجاماً مع واقعيتيه العملية المتغيرة حسب الظروف الزمانية والمكانية.

ولهذا توصلوا - الإباضية - إلى إدراج مجموعة من الأصول تضمن استمراريته كأصل عملي أخلاقي اجتماعي.

وهذه الأصول [الدعوة - الإمامة ⁽¹²⁷⁾ - التقية - الولاية والبراءة] كلها مباحث نظرية وعملية تضم إلى أصول العقيدة عند ، وهذه الأصول الأربعة بمثابة الشرايين التي تمد أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحياة، وهي أيضاً أصول ثابتة، ولكنها مرنة في أساليبها، والمسلم قادرٌ على أن يتكيف بها مع مختلف الظروف.

ز - في التّقية :

قال محمد بن محبوب : (من قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضيّعهما فقد ضيّع أمر الله إلا أن يخاف على نفسه، فإن التّقية تسعه) ⁽¹²⁸⁾.

وقال أيضاً : (وإنما تجوز التّقية في القول لا في العمل، وكذلك جاء في الأثر عن أشياخ المسلمين أنه لا يجوز لمسلم أن يعصي الله بركوب ما حرم الله

(127) الإمامة والفكر السياسي بشكل عام من القضايا التي كثر التأليف فيها عند الإباضية في القرون الأولى ورسالة محمد بن محبوب إلى إمام حضرموت معظمها في هذا السياق، والقيام بتحليلها يخرجنا من علم الكلام إلى السياسة الشرعية التي تصنف ضمن مباحث الفقه لذلك تركنا تفصيلها. والذي يجدر الإشارة إليه أن الإمام محمد بن محبوب يكرر كثيراً بأن الاستعانة بأموال الصدقة من أجل إقامة حدود الله أولى من إعطائها للفقراء، ومن أقواله : (فإن إقامة دين الله يوماً واحداً أفضل من إنفاق ملء الأرض ذهباً صدقة على الفقراء)، سيرته إلى إمام حضرموت، ص 230، وقال أيضاً : (وإقامة الدولة وإحياء الدين أقرب إلى الله من إعطاء المساكين)، سيرته إلى إمام حضرموت، ص 233.

(128) سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج 2، ص 243.

عليه للتقية، ولا يضيع ما أوجب الله عليه للتقية إلا أن يحال بينه وبين الفرائض مثل الصلاة، فإنه يصليها بما أمكن له من الصلاة ولو بتكبير خمس تكبيرات إذا أحيل بينه وبينها⁽¹²⁹⁾.

فما هي التقية؟ وما موقعها في الفكر الإباضي؟

التقية هي اسم للفعل الذي يُبقى به على النفس، سواء كان قولاً أو غير قول وهو مستكره عليه⁽¹³⁰⁾.

وحدّ الإكراه أن يهدّد قادرٌ على الإكراه بعاجل من أنواع العقوبات، يؤثر العاقل لأجله الإقدام على ما أكره عليه، وقد غلب على ظنه أنه يفعل به ما هدّده به إن امتنع مما أكرهه عليه، وعجز عن الهرب والمقاومة والاستغاثة أو نحو ذلك من أنواع الدفع⁽¹³¹⁾.

وقد أجاز علماء⁽¹³²⁾ التقية في الأقوال، وغير جائزة في الأفعال، بشرط ألا تجر ضرراً بإنسان أو تتلف مالا للغير⁽¹³³⁾.

ويستخدم التقية عندما يكونون تحت حكم الجبابة، فيظهرون الولاء تقية في الأقوال والمداراة وما شابه ذلك ويستدلّون على ذلك بالقرآن والسنة.

(129) المرجع السابق، ص240.

(130) السالمي: المشارق، ج2، ص399.

(131) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(132) منير: سيرة منير الجعلاني إلى الإمام غسان (ضمن السير والجوابات)، ج2، ص232 / عبد الوهاب: كتاب مسائل نفوسه، ص58 / أبو أيوب: سيرة أبي أيوب الحضرمي (ضمن السير والجوابات)، ج2، ص49، 53 / سالم بن ذكوان: سيرة سالم بن ذكوان (ضمن منهج الدعوة)، ص367، 385 / الدرجيني: طبقات، ج2، ص216، وقال الإمام السالمي في حكم التقية:

أجزز تقية بقول إن خلص من نيل ضر من به القول يخص
وامنعها في إتلاف نفس إن جنى والخلف في تلاف مال ضمننا

(المشارق)، ج2، ص403.

(133) السالمي: المشارق، ج2، ص403 / الكندي: بيان الشرع، ج6، ص119 / الكسبي، أبو سعيد بن محمد: المعبر (وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط1، 1405هـ/1984م)، ج1، ص212.

فمن القرآن ما جاء على لسان ابن ذكوان حيث قال: "مكث مؤمن آل فرعون ما شاء الله أن يمكث كاتماً لإيمانه، فلم يرده الله عليه بكتمانه إياه، وقد قال الله: ﴿ لَا يَتَخَذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (134)، فحرّض الله المؤمنين في التّقية، وكيف يتّقي المؤمنون الكفار إلّا بأن يظهرُوا لهم ما يحبّون ويكتمون دينهم " (135).

ومن السنة ما ينقله الرّبيع بن حبيب عن الإمام جابر بن زيد قال وسئل عبدالله بن عباس عن التّقية فقال: النبي (ﷺ): (رفع الله عن أمّتي الخطأ والنسيان وما لم يستطيعوا وما أكرهوا عليه) (136) كما ينقل الرّبيع أيضاً قولاً لجابر بن زيد يقول فيه: قال ابن مسعود: "ما من كلمة تدفع عني ضرب سوطين إلّا وتكلمت بها" (137).

وقد اتخذ الإمام جابر بن زيد التّقية في مرحلة الكتمان كوسيلة دفاعية، تحميه وجماعته من بطش السلطة، وأعوانها، وهو ما تجلّى واضحاً في رفضه تولي منصب القضاء للحجاج بن يوسف حين عرضه عليه، حيث تخلص من هذا العرض بلباقة وذكاء (التّقية) قائلاً له: "إني اضعف من ذلك فقال

(134) آل عمران: 28.

(135) سيرة ابن ذكوان (ضمن مسند الرّبيع)، ص 367.

(136) الرّبيع: عقيدة (ضمن مسند الرّبيع)، ج 3، ص 301، وقد ورد هذا الحديث عن ابن عباس في أكثر كتب الحديث وبطرق مختلفة منها (إن الله وضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)، وأخرى (تجاوز الله عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)، انظر: الحنبلي (ابن رجب): جامع ص 35 / ابن ماجه: سنن، ج 1، ص 659 / البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى (تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت)، ط 1، 1414هـ - 1994م ج 7، ص 356 / الدارقطني (علي): سنن، ج 4، ص 171.

(137) الرّبيع: العقيدة (ضمن مسند الرّبيع) ج 3 ص 301.

الحجاج : وما مبلغ ضعفك ؟ قال : يقع بين المرأة وخادمها شرّ فلا أحسن أن أصلح بينهما، قال : هذا لهو الضّعف" (138).

وقد طبقت الإباضية من بعد الإمام جابر بن زيد مبدأ النقيّة، وقام علمائها بتأصيله، وتبين أحكامه.

ولم تكن هي الوحيدة التي استخدمت النقيّة، بل قالت به المذاهب الإسلامية الأخرى (139).

وتطلق عليه مصطلح (الإكراه) (140).

أمّا الشيعة الإمامية، فتعتبر (النقيّة) من المباحث العقديّة المهمّة لديها (141).

وخلاصة القول : إن استخدام لا يعني أنهم يتّصفون بالجبن، بل إنهم حيث ينشب القتال ويشاركون فيه، كانوا يظهرون من الجرأة ما لا يقلّ عما كانت تفعله الحركات الأخرى التي لا تعمل بالنقيّة، كالأزارقية (142).

وهكذا يتّضح قدرة المذهب على حمل هم الدعوة وتغيير المنكر تحت أيّ ظرف دون الذوبان في المجتمع المنحرف ودون التطرّف والإرهاب.

(138) الدرجيني : الطبقات ، ج2، ص211 / الشماخي أحمد بن سعيد (ت : 928هـ) : السير تحقيق : حمد بن سعود السابري، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الثانية، ج1، ص70.

(139) قال الحسن البصري : ط النقيّة جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة " انظر : الرازي : التفسير ج8 ص12 / القرطبي : الجامع، ج5، ص197. ومن أشهر العلماء الذين استخدموا مبدأ (النقيّة)، إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين والقواريري، وسجاده فيما سمي — (محنة خلق القرآن). ويعلق الطبري بقوله : " قالوها نقيّة " انظر : الطبري : تاريخ، ج5، ص188 - 194.

(140) ابن عابدين : حاشية رد المحتار، ج6، ص128 / ابن جزم : المحلى، ج9، ص258 / ابن حجر : فتح الباري، ج12، ص311.

(141) الكليني : الكافي، ج2، ص219—224 / الموسوي : الشيعة، ص15 - 34.

(142) فلها وزن : الخوارج والشيعة (ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت)، ص68.

ح - في الولاية والبراءة :

قال محمد بن محبوب : (جاء الأثر عن أئمة المسلمين أن الناس ثلاثة : معروف تثبت ولايته، ومعروف تثبت عداوته، ومن لا يعرف فذلك ممسك عنه حتى يعلم منه ما يستحق أحد الحالين) ⁽¹⁴³⁾، و (إن المسلمين قالوا في سيرهم إن من دينهم ولاية أهل طاعة الله على طاعتهم، وعداوة أهل معصية الله على معصيتهم) ⁽¹⁴⁴⁾.

ويقول موضحاً في مكان آخر: الحبّ والبغض عملان، فالحب لله ولاية أهل طاعة الله على استكمال طاعته، والحفظ لغيبهم بما حفظ الله، والعون لهم على البر والتقوى كما أمر الله فرض واجب، والفراق لأهل معصية الله على معصية الله والعداوة لهم فرض واجب ⁽¹⁴⁵⁾.

وقضية الولاية والبراءة تتكرر كثيراً في آثار محمد بن محبوب فما هي الولاية والبراءة؟ وما أصلها في الفكر الإباضي؟

وتعدّ قضية الولاية للمطيعين والبراءة من العاصين أصلاً من أصول الدين عند الإباضية ومبحثاً من مباحث العقيدة، وقد التقت أئمة ومشايخها منذ البداية على أهمية هذا الاعتقاد، وضرورة استخدامه في سبيل تطوير حركتهم ونشر دعوتهم، وهذا الاعتقاد كان من أهم العوامل التي ساعدت على الحفاظ على وحدة الجماعة وتماسكها عبر العصور.

بدأت الحركة سرية، واتخذت من البصرة مقراً لها، وكان ذلك خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري والنصف الأول من القرن الثاني الهجري حيث كانت زمام الأمور بيد الدولة الأموية وكان ولائهم في

(143) سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج 2، ص 258.

(144) المصدر السابق، ص 229.

(145) الأزكوي : الجامع لابن جعفر، ج 1، ص 181.

العراق⁽¹⁴⁶⁾ يشتدون في ملاحقة أتباع الفرق الإسلامية المناوئة للحكم الأموي، فرأي أن يسيروا بدعوتهم بحذر شديد متجنبين المعارضة المسلحة ضد الحكم القائم، وفي الوقت نفسه أوجدوا الوسائل الكفيلة لنشر دعوتهم في الأمصار الإسلامية فاستعملوا التقية الدينية وأوجدوا تنظيماً سريعاً دقيقاً - كان الولاية والبراءة أحد عناصره⁽¹⁴⁷⁾ - ساعد في نجاح الحركة وتحقيق أهدافها⁽¹⁴⁸⁾.

وقد أصبحت هذه الدعوة قاعدة هامة ومارسها الإباضية في كل زمان ومكان، بحيث لا يقبل في الجماعة أحد إلا بعد أن يعلن أنه ولي وليهم وعدو عدوهم⁽¹⁴⁹⁾.

وعلى كل حال فإن مبدأ الولاية والبراءة يعتبر فرضاً دينياً واجباً، على كل إباضي أن يقيد بأحكامه وشروطه، طبقاً للقواعد التي وضعها وطبقها مشايخ الأوائل⁽¹⁵⁰⁾، وقد قام علماء ومفكروهم بتدوين هذه القواعد والأحكام، وألفوا الكتب التي تبحث في هذا الموضوع، بحيث أصبح للإباضية بعد بعد عقائدي - خاصة في هذا الشأن - لا نجد مثيلاً عند أتباع الفرق الإسلامية الأخرى⁽¹⁵¹⁾.

وقد قسمت الإباضية الناس باعتبار التزامهم بالشرع إلى ثلاثة أصناف⁽¹⁵²⁾ : معروفون بالصلاح، وهم أصحاب الولاية ومعروفون بالفساد أو

(146) مثل : زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف الثقفي.

(147) ليس المراد بالولاية والبراءة مجرد وسيلة لتحقيق أهداف الحركة بل هما أصل من أصول العقيدة عند الإباضية كما أشرنا من قبل وهذه العقيدة ساعدت على نجاح الحركة.

(148) حول التنظيم السري الإباضي في القرنين الأول والثاني الهجريين، انظر: عدون: الفكر السياسي، ص 148 وما بعدها / خليفات : التنظيمات السياسية، الكتاب كله.

(149) الجبيلي: قواعد الإسلام، ج 1، ص 55.

(150) مشايخ الإباضية الأوائل هم : 1 - جابر بن زيد 2 - أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة 3 - الربيع بن حبيب.

(151) خليفات : دراسات في النظم والعقائد الإباضية (مجلة المؤرخ العربي)، ص 205 - 206 بتصرف.

(152) أبو أيوب : سيرة أبي أيوب (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 58 / ابن ذكوان : سيرة بن ذكوان (ضمن كتاب منهج الدعوة)، ص 380 / عبد الوهاب: كتاب مسائل نفوسه، ص 37 / منير: سيرة منير الجعلائي إلى الإمام غسان (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 232 / ابن إباض: رسالة ابن إباض إلى عبد الملك بن مروان (ضمن منهج الدعوة)، ص 335 / محمد بن محبوب: سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج 2، ص 258.

التّقصير في الواجبات وهؤلاء أصحاب براءة، وغير معروفين لا بصلاح ولا بفساد فيقف المرء عنهم، لا يضعهم في ولاية ولا في براءة حتّى يتبيّن أمرهم، فإن عرف منهم صلاح أصبحوا في ولاية، وإن عرف منهم عصيان أصبحوا في براءة.

فالناس إذن إمّا أن يكونوا في ولاية أو في براءة أو في وقوف.

وتفيد الولاية لغة القرب وهي مأخوذة من ولاية أمر اليتيم، وهو القيام بأمره والاهتمام بمصالحه، وهو معنى ولاية الله لأوليائه، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾⁽¹⁵³⁾، أي ناصرهم ومتولّي أمورهم وحافظهم⁽¹⁵⁴⁾.

أمّا اصطلاحاً، فهي تعني الحبّ بالجنان، والثّناء باللسان، والنصرة والإعانة بالجوارح عند المقدرة⁽¹⁵⁵⁾.

وبمعنى آخر الولاية تعني المحبّة والمودة والمؤاخاة والمصافاة والمناصرة والثّناء ووجوب الترحم والاستغفار للمؤمنين، وتجمع هذه المعاني كلّها عبارة الحبّ في الله.

وتفيد البراءة لغة الخلاص من الشيء أو التحرّر منه⁽¹⁵⁶⁾، وبريء : إذا تخلص، كذلك إذا تنزه وتباعد⁽¹⁵⁷⁾. ومنه قولهم : اللّهم أبرأ إليك من الحول والقوة، وهو بريء مما قذف به، وقد برأت شريكي: فاصلته، وأبرأت الرجل : جعلته بريئاً من حق لي عليه⁽¹⁵⁸⁾.

(153) البقرة : 259.

(154) ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص490 / الجبّطالي: قواعد الإسلام، ج1، ص45.

(155) السالمي: بهجة الأنوار ص126 / الجعبري وعاشور: العقيدة "2" ص165 / الجبّطالي : قواعد الإسلام ج1، ص45.

(156) الشّتناوي : دائرة المعارف الإسلامية، ج3، ص481.

(157) ابن منظور : لسان العرب ج1ص72.

(158) الزمخشري، جار الله أبو القاسم : أساس البلاغة (دار النفائس، بيروت، ط1 1412هـ - 1992م)، ص34.

وتكرر لفظ "براءة" في آيات كثيرة، منها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لِلْأَوَاهِ حَلِيمٌ ﴾ (159)، وقوله : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (160).

ومما تقدم يتبين أن معاني البراءة في اللغة تدور حول الخلاص والتباعد. وفي الإصلاح نجد تعاريف عديدة، للبراءة تعاريف عديدة منها :

فهي تعني الميل بالقلب والجوارح عن عاص لعصيانته (161). وتعني التبرؤ من الفعل المكفر ومفارقة أهله عليه والتخطفة لهم والإنكار عليهم، والكرامية لهم وترك الرضا بفعلهم (162). كما تعني كذلك البغض بالقلب والشتم باللسان والردع بالجوارح (163).

ومن التعاريف السابقة يمكن استنتاج أن البراءة عقوبة على الخروج عن طاعة الله تعالى.

وأنها عبارة عن تغيير للمنكر بثلاث طرق مجتمعة أو مفردة : باليد واللسان والقلب.

كما أنها عبارة عن عملية مفارقة بسبب العصيان، وبالتالي يمكن أن تحسب تنظيراً وتقييداً لعقوبة الهجر (164).

وتعني كلمة "الوقوف" الإمساك عن إمضاء حكم، بحق ولاية شخص، أو مجموعة أو البراءة منهم، لعدم توافر الأدلة والمعلومات اليقينية التي توجب الولاية أو البراءة. ويرى الإباضية تبعاً لذلك أن الناس ثلاثة فرقاء : فريق علم

(159) التوبة : 114.

(160) الشعراء : 216.

(161) أبو حفص : مقدمة التوحيد ، ص 106.

(162) الرستاقى : منهج الطالبين ، ج 2 ، ص 3.

(163) السالمى : بهجة الأنوار ، ص 126.

(164) جاء في صحيح البخاري باب بعنوان : "ما يجوز من الهجر لمن عصى" قال ابن حجر : السبب المسوغ للهجر هو أمن صدرت منه معصية، فيسوغ لمن اطاع عليها هجره عليها ليكف عنها (فتح الباري)، ج 12 ص 122 - 123.

منه الخير، وهو الموافقة في الدين والعمل، وهذا هو الولي المستحق للولاية، وفريق علم منه الشر، وهو المخالفة في الدين بالقول والعمل، وهذا هو المخلوع المستحق للبراءة والعداوة، وفريق ثالث لم يعلم منه شر ولا خير وهو الموقوف عنه حتى يثبت عليه ما يوجب الولاية أو البراءة (165).

قال أبو أيوب : ".... ومن لم يعرفوه موافقاً لهم ولا مخالفاً كفوا عنه، لا يبرأون ولا يتولون حتى يعرفوه " (166).

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بمختلف مذاهبها على وجوب الولاية للمؤمنين ووجوب البراءة من الكفار والمشركين (167).

أما البراءة من مرتكب الكبيرة لم يظهر عند المذاهب الإسلامية كما هو الحال عند الإباضية (168)، التي تعد البراءة من مرتكب

(165) ابن الرحيل محبوب : سيرة محبوب إلى أهل عمان (ضمن السير والجوابات)، ج 1، ص 286 / الجبالي : قواعد الإسلام، ج 1، ص 96.

(166) أبو أيوب : سيرة أبي أيوب في صفة الإسلام (ضمن الشمس الشارقة)، ص 136.

(167) الوارجلاني : الدليل والبرهان ج 2 ص 161 / ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1402هـ - 1982م)، ص 5 / محمد بن عبد الوهاب : عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة (تحقيق : زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 5، 1414هـ - 1993م)، ص 9 / المنذري : نهج الحقائق ص 347 / السعدي : قاموس الشريعة، ج 5، ص 13.

(168) البراءة من مرتكب الكبيرة قالت به أيضاً فرق الخوارج، لكن لم أعرش على تنظير لهذه المسألة عندهم إلا إشارات بسيطة من كتب الفرق والمقالات، وما لم تكن من مؤلفاتهم تبقى محل نظر، فيصعب التعويل عليها، انظر الشهرستاني: الملل والنحل ص 37 / الأشعري : مقالات الإسلاميين، ج 1، ص 169، 177.

ومنهج المعادة من مرتكب الكبيرة المتبع عند الزيدية يشبه تقريباً منهج البراءة المتبع عند الإباضية، مع بعض الفوارق البسيطة، من هذه الفوارق ما يأتي :

أ - تستعمل الزيدية (الموالة والمعادة) في حين تستعمل الإباضية (الولاية والبراءة).
ب - تورد الزيدية مبحث المعادة في كتب الفقه أكثر من إيرادها في كتب العقائد. أما الإباضية فيرون أن مبحث (الولاية والبراءة) أصل من أصول العقيدة لذلك نجدهم يوردون هذا الأصل في كتب العقائد.

ج - لم أعرش في كتب الزيدية التي اطلعت عليها على منهج تطبيقي ممارس للمعادة والموالة إلا إشارات قليلة إذا ما قورنت بما ألفه الإباضية في الولاية والبراءة حيث إن لهم في ذلك المدونات الكثيرة، ولهم مدارس ومنظمات تربوية لا زالت تطبق فيه عقوبة البراءة من مرتكب الكبيرة خاصة عند إباضية المغرب العربي في نظام يدعى بـ (نظام العزابة)، انظر : ابن حمزة، يحيى بن حمزة بن علي: التحقيق في تقرير أدلة التكفير والتفسيق (مخطوط، دار الوثائق والمخطوطات بوزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الرقم العام : 271، الرقم الخاص 422 ب) ص 199 و 202 / أبو عبدالله الأمير: الينابيع الصحيحة ص 290 - 291.

الكبيرة أصلاً من أصول العقيدة دونت في توضيحها المؤلفات منذ القرون الأولى (169).

ويعدّ الوقوف واجبا بالكتاب والسنة والإجماع قال تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ (170) ، وقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (171).

وقال رسول الله (ﷺ) : (وأمر أشكل عليك فقف عنه) (172)، وقال أيضاً: (المؤمن وقاف والمنافق وثاب) (173).

ومن الإجماع أنّ المؤمن إذا علم تقواه وصلاحه ففي الولاية، وأنّ الفاسق إذا علم حاله ففي البراءة، وإن جهل حاله ففي الوقوف حتى يعلم (174).

ومن الجدير بالإشارة أن الإباضية عندما تعلق البراءة على مرتكب الكبيرة، لا يعني ذلك إخراجهم من الملة، بل يظلّ في صفوف المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم سوى بغضه بالقلب، وتغيير منكره باليد أو اللسان لمن قدر عليه.

قال السّالمي : "قال الحكم بالبراءة إنما يكون على حكم الظاهر والقطع بدخوله النار يشترط أن يكون عن تعاطي علم الغيب الذي استأثر الله به فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وعملنا في البراءة منه بحكم

(169) أشمل المؤلفات الإباضية وأقدمها حول الولاية والبراءة هي مؤلفات الكدّمي في القرن الرابع الهجري، حيث أفرد كتابين لتفصيل الولاية والبراءة، كتابه الأول بعنوان: الاستقامة (ثلاثة أجزاء)، وكتابه الثاني بعنوان: المعتبر (أربعة أجزاء)، وتوالت المؤلفات في هذا الأصل حتى أصبح مبحث الولاية والبراءة من مباحث العقيدة، لا يخلو أي مؤلف إباضي في العقيدة من ذكره.

(170) الإسراء : 36.

(171) الحجرات : 6.

(172) البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله: كتاب الزهد الكبير (تحقيق: الشيخ عامر أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط3، 1996م)، ج 2، ص 341 ح (928).

(173) المرجع السابق .

(174) الجعيري وعاشور : العقيدة "3"، ص 177.

الله الذي أوجبه علينا في البراءة من المصيرين المحادين في حكم الظاهر، ولم نتعاط فيه الغيب إذ ليس ذلك إلينا وإنما هو إلى عالم السرّ والنجوى فأهل الأحداث المضلّة... إنّما نبراً منهم بسبب ما أحدثوا من المعاصي التي أوجب ربنا تعالى مفارقتهم عليها والبراءة منهم بسببها ولا نقطع أنّهم في النار إلا إذا كانوا قد ماتوا على ما علمناه منهم في حكم الظاهر، فنحن نبراً منهم بموجب حكم الله ونتأذّب عن القطع في الغيب بموجب حكم الله.

والبراءة حكم من أحكام الله ولا تنافي دخول الجنّة لمن تاب فإنّ الحدّ قد يقام على الشخص وهو في علم الله أنّه من أهل الجنّة، فمن قطع يده بحكم الله لا يكون مخالفاً ولا مضيعاً بل قائم فيه ومؤد فيه فرضه الذي أوجبه الله عليه، والله أعلم " (175).

ط - في الرّوحانيات :

الشفافية الرّوحية، والنزعة الرّبّانية، هي الصبغة الغالبة على آثار محمد بن محبوب ولا غرابة في ذلك فقد تربى في أحضان تلاميذ التابعين، وشرب من معين الروح الإسلاميّة وهي قريبة من عهد النبوة.

ولو قام فيلسوف بدراسة آثاره لاعتبره إماماً للمتصوّفة، لكثرة عباراته الدالّة على القرب من الله والبعد عن الدّنيا وملذاتها.

لقد اتّسم فكر محمد بن محبوب بنصائح ربّانية مثل التوصية بالتقوى، وبلزوم الطاعة لله، والتوسّل إليه، واستغلال العمر بإدامة الذكر واجتناب الغفلة، والاستعانة بالله، والخوف منه والرجاء فيه، والتّحذير الشّديد من الشّيطان والدّنيا والهوى، والتّوبة من الغفلة والزّلة، وشكر النّعمة، واجتناب الفتن (176).

(175) من جوابات الإمام السالمي، ج1، ص236.

(176) كل رسائله تبدأ بمثل هذه المعاني.

وقد خاطب شيخنا في نصحه العاطفة والعقل والفطرة مثل قوله :
(... فالله الله يا أهل القرآن ويا إخوان الإيمان ويا أهل المساجد ويا أهل
المشاهد ويا أهل الصلوات والزكوات والحجّ والعمرات ويا أهل الرغبات
والرهبات ويا أهل الصّوم والدلجات ويا أهل العلم والعبادات ويا معشر
الربّانيّين والأخبار ويا سماع الرعيّة وذوي الأبصار في دينكم لا يحبط من
حيث لا تشعرون، أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا...) (177).

كما يقول :

- يا معشر المسلمين قد أبكيتم منّا العيون وحركتم منّا السكون وتلاحمت
علينا فيكم الغموم وحمت الهموم (...) (178) .

وقد حاول شيخنا أن يظهر في بعض الأحيان عدم الرضا بتكرار الحوقلة
مثلما يتجلى ذلك في قوله : ﴿ فَإِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ثُمَّ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ثُمَّ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (179).

وقوله : ﴿ الله الله يا أهل سورة البقرة وآل عمران وطه والفرقان وحم
وسبحان والمثنائي وقلب القرآن ... ﴾ (180).

ويرى محمد بن محبوب أنّ عوامل النّصر الأساسيّة ثلاثة (181) وهي :
الاستقامة لله والعزيمة والتّوكّل على الله.

ويعدّ الذكر والدعاء من أسس العبادة، ومن رموز الاحتياج إلى مالك
الحاجات ومصرف الأمور الذي نستمد منه وجودنا في كل لحظة، وقد أمر عزّ

(177) سيرته إلى أهل حضرموت، ضمن مخطوطة (سير علماء الإباضية)، ص 266.

(178) المصدر نفسه.

(179) المصدر نفسه.

(180) المصدر نفسه، ص 231.

(181) سيرته إلى إمام أهل حضرموت ضمن مخطوط (سير علماء الإباضية)، ص 227.

وجلّ بالذكر والدعاء في آيات كثيرة من كتابه وحث نبيه على ذلك في أحاديث يصعب عدها.

لهذا ظهر اهتمام محمد بن محبوب بالدعاء بشكل بارز، فبين الفقرات وفي مطلع الفتاوى وفي اختتام سيره نجد لسانه يلهث بالدعاء وطلب العون من الله عزّ وجلّ، وأحياناً يوصي إخوانه بالدعاء فيقول : ﴿ ولا تترك العزم والحذر والحزم في كل شيء من أمرك مع كثرة الدعاء أنت ومن معك وطول الرغبة والابتهال إلى الله في سلامة دينكم وصلاح أمركم وعز دعوتكم وحقن الدماء وسكن الفتن عنكم بالليل والنهار وفي الضحى والأسحار ﴾ (182)، وقال أيضاً موضعاً مظنة إجابة الدعاء : ﴿ وإن استجبتُم لله كان الله لدعائكم مجيباً ﴾ (183) وفي آداب الدعاء قال : (وإن سألت ربك فلا تقل إن شئت يا رب فعلت لي كذا وكذا، ولكن اعزم على المسألة وألح⁽¹⁸⁴⁾ على ربك، وجد في الطلب، وقل : اللهم يسّر لي كذا وكذا، وأعطني كذا، واجعل لي فيه خيراً في ديني ومعيشتي، ولا تقل : إن كان هو خير، ولكم تسأله ما سألته، ثم قال : اللهم اجعل لي فيه خيراً⁽¹⁸⁵⁾ .

وقد حثّ شيخنا على التمسك بالقرآن والسنة وآثار السلف يقول في هذا الإطار :

(وأصدع بما أمرك به القرآن وجاءتك به السنة والآثار تكون من المفلحين)⁽¹⁸⁶⁾، ويحذّر من أتباع الهوى فيقول : (وإنما أضلّ الناس بإتباعهم أهواءهم وتقديمتهم آراءهم ولو كان الرأي جائزاً لمن لا يعلم الحق لكان كل من كان يدين برأي مصيباً)⁽¹⁸⁷⁾، ويحدد مصادر الحق التي يجب التمسك بها في

(182) المصدر السابق، ص234

(183) المصدر السابق، ص231.

(184) في المخطوط : والحف.

(185) الأزكوي : الجامع لابن جعفر ، ج1، ص82.

(186) سيرته إلى أبي زياد خلف بن عذرة، ص221.

(187) سيرته إلى أهل المغرب، ضمن (السير والجوابات)، ج2، ص233.

مقالة طويلة (188) فقد وضع في المرتبة الأولى : القرآن الكريم وفي المرتبة الثانية السنة النبوية وفي المرتبة الثالثة آثار أئمة الهدى ثم مشاورة أهل الرأي من المسلمين (أهل الحل والعقد) فيستخدمون رأيهم مع الاجتهاد والعلم بأصول الشرع. وفي حالة عدم التوصل إلى رأي يوافق الشرع استشاروا من هو أعلم وأفقه منهم، وهو ما يحدث مع أهل المغرب حيث كانوا يستشيرون علماءهم في البصرة وعمان وكل هذا الحرص من أجل موافقة الشرع واجتناب اتباع الهوى. كما دعا شيخنا إلى التواضع : يقول محذراً الذين يتسابقون في إخراج الفتاوى للناس.

(... فالواجب عليهم أن يتورعوا عن الفتيا إلى أن يحتاج المسلمون إليهم، وليكونوا على الصمت والاستماع لنور العلم أحرص منهم على الكلام، ولعمري، لو قرأوا العلم وأقرأوا لما رغبوا في الشهرة، ولا عرفوا الناس أن معهم فضل رأي وعلم بفضل عندهم، ولحذروا على أنفسهم التقديم فيما لا يسعهم التقدم، واتهموا آراءهم وحفظهم، وأجموا ألسنتهم عما لا يطئون فيه أثراً، ويخافون أن يحملوا فيه وزراً، ولو صبروا حتى يختبروا لكان خيراً لهم وأسلم، وإن كانوا يعلمون حق العلم فإنهم ينبغي لهم أن يعرفوا أنهم لا يسعهم أن يحلوا، أو يحرّموا بأرائهم بالحلال والحرام، والحرب والسلم، فقد كان من هو أفقه منهم وأعلم بالله منهم، يقول في بعض ما سئل عنه، أنا ليس ممّن يؤخذ برأيه، وهؤلاء يتسرّعون ويستحقّون فيما الوقوف عنه أولى بهم وأزين لهم ، واسلم) (189) .

هكذا، وبناء على ما تقدّم بسطه يمكن القول إنّ الشيخ محمد بن محبوب قد خاض في مسائل كلامية شتى منها ما اتّفق فيها مع غيره ومنها ما انفرد فيها برأي متميّز.

(188) المرجع السابق، ص 233 - 235.

(189) الأزرقي : الجامع لابن جعفر، ج 1، ص 212.